مجلة المعارف للبحوث و الدراسات التاريخية
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/111
ISSN: 2437-0584/ EISSN: 2437-0584
المجلد 07 ،العدد 03 ديسمبر ،2021 ص - ص:144-162

البناء والعمارة الطينية في واحات توات

"دراسة في الدلالات الثقافية والأبعاد التاريخية والمعالم".

Building and muddy architecture in the oases of Tuwat A study of cultural connotations, historical dimensions and landmarks.

أم الخير مقدم(*)
مخبر المخطوطات الجزائرية في أفريقيا جامعة أحمد دراية –ادرار، (الجزائر)
mekadem.oumelkhier@gmail.com

د. عبد الله خي
مخبر المخطوطات الجزائرية في أفريقيا جامعة أحمد دراية –ادرار، (الجزائر)،
Kha.abdallah@univ-adrar.dz

تاريخ الاستلام: 2021/04/ 30 **تاريخ القبول:** 2021/12/ 11 **تاريخ النشر:** 2022/02/ 05

الملخص

يعتبر البناء الطيني أو الطوبي من أبرز مميزات الصحراء الجزائرية، ويحتل إقليم توات مساحة كبيرة من هذه الصحراء المترامية الأطراف،ولعل أكثر ما يلاحظ هو تلك البناية المميزة بلونها الأحمر الطيني والذي يحمل في طياته أبعاداً تاريخية وحضارية كثيرة،وهي بمثابة حظيرة مفتوحة على التراث المبني بالطين الذي يعتبر موروث ثقافي مادي يعبر عن ثقافة وتاريخ المنطقة غير أنه يعاني الكثير من الإهمال والتهميش. الأمر الذي يؤدي إلى ضياع كنوز معمارية كثيرة وحقائق تاريخية إذا ما استمر الأمر على هذا الحال. وأن أبسط شيء يقوم به الباحث هو السعي للمحافظة على هذا الموروث من خلال البحث فيه وإحيائه واستغلاله للرجوع إلى النمط المعماري التقليدي الأصيل وعصرنته في المناطق الصحراوية واستغلاله في الجانب السياحي والتنمية الاقتصادية

الكلمات الدالة: توات ؛ البناية ؛ الطينية ؛ القصور ؛ قورارة.

Abstrac:

Buildings or clay architecture is one of the most prominent feature of the Algerian desert. Tuwat with its three large areas (Tuwat, Tidikalt and Guorara)is now occupied a large area of this vast desert . Perhaps the most noticeable is the distinctive building of the nud-built area as a material heritage that expresses the culture and history of the inhabitants of these regions, and a way to preserve their national identity. Through this article, I have attempted to address the historical and civilization dimension of clay architecture in Tuwat region, the patterns

* المؤلف المرسل.

of this architecture, its characteristics and factors affecting it. Among the things that were touched upon are religious architecture, such as mosques and corners dwellings and houses, Kasbahs, Places, and funerary architecture like graveyards.

Keywords: Tuwat; Buildings; clay; Guorara; Kasbahs.

1. مقدمة:

يعتبر إقليم توات من أبرز المناطق المشكلة للجنوب الغربي الجزائري،وعلى الرغم من بعد المنطقة عن المراكز الحضارية في الشمال قديماً إلا أنها حظيت باستقطاب العديد من القبائل والأجناس التي عمرت المنطقة وهو العامل الذي انعكس على عنصرٍ هامٍ في الإقليم وهو البِنَاية الطينية،وهذا النمط من العمارة يعد شاهداً على تاريخ المنطقة،وحافظا لموروثها الثقافي، و تعد حرفة البِنَاء من بين الحرف القديمة التي انتشرت في الإقليم وزاولها العديد من الأشخاص،وقد أظهر البَنَّاء التواتي براعته في حرفته رغم أنه لم يكن دارساً للهندسة ولا مطلعا على خباياها وتقنياتها،ولكن اكتسبها بحكم البيئة ومن مداعبته. لمادة الطين التي جعلته يستغلها بطرق مختلفة ويبدع فيها.

وقد ارتأيت أن أبحث في هذا النوع من الموروث الثقافي المادي المنتشر بكثرة في توات والمهمل،ومعرفة خصائصه ومميزاته،وسبل الاستفادة منه بعيداً عن الدراسات الأثرية،كونه موضوعا يحتاج إلى كثير من الدراسة والبحث وللوصول إلى ذلك كان لابد من طرح الإشكال التالي:ما هي الأبعاد التاريخية؟والدلالات الثقافية والاجتماعية للعمارة الطينية في توات ؟ وماهي خصائصها وأشكالها؟وللإجابة على ذلك اتبعت المنهجين الوصفي والتحليلي لاستقراء وتحليل التفاصيل الدقيقة في العمارة التواتية للوصول إلى الموروث الثقافي الذي يحتضنه البيت التواتي من داخله،وكل ركن أو زاوية أو زقاق بداخل القصر أو القصبة عموماً،لأنها تحمل قضايا ثقافية كثيرة غفل عنها الباحثون الذين اقتصرت دراستهم فقط حول المظهر الخارجي والهندسي لتلك العمارة،وذكر بعض معالمها كالمساجد والزوايا،والمساكن والقصور وغيرها.

2. جغرافية إقليم توات

إقليم توات هو عبارة عن مجموعة من الواحات التي تقع في الجنوب الغربي الجزائري،يحده من الشمال العرق الغربي وهضبة تدمايت، ومن الجنوب هضبة مويدر، ويقع الإقليم بين خطي طول °4غربا وإلى°1شرقا وبين خطي عرض26 °و°30شمالا[1] والإقليم حاليا يقع ضمن امتداد أدرار وتيميمون وعين صالح، فالأولى تعرف بتوات والثانية قورارة والثالثة تمثل منطقة تيديكلت، وأطلق على المنطقة مجتمعة مايسمى إقليم توات، وتقع قورارة في شمال الإقليم بين العرق الغربي وهضبة تدمايت ووادي الساورة، وتنطق تيجورارين وقورارة وتيكورارين،وتحتوي على 12مقاطعة وعاصمتها تيميمون، وتعد تيديكلت المنطقة الجغرافية الثانية المشكلة للإقليم وتقع في أقصى الشرق من الواحات التواتية، وجنوب هضبة تدمايت، تمتد من الشرق إلى الغرب على مسافة 150كم، وتمتد قصورها من الشرق إلى الغرب وعددها 46 قصرا،[2] وبها ستة مقاطعات .

أما توات الوسطى فهي المنطقة الجغرافية الواقعة بين إقليمي قورارة وتيدكلت وتسمى توات الأصلية أو (تسوات)[3] يحده من الشمال العرق الغربي الكبير وعرق الراوي وإقليم قورارة ومن الغرب وادي مسعود، ومن الجنوب الغربي عرق شاش، ومن الشرق هضبة تدمايت، ومن الجنوب الشرقي إقليم تيدكلت وجنوباً تنزروفت.

3. مفهوم البناية الطينية (الطوبية)

أ- البِنَاءُ لغةً : جاء في القاموس المحيط:البَـنْيُ نقيضُ الهَدمِ،بَنَاهُ يَبْنِيهِ بَنْياً وبِنَاءً وبُنْيَاناً وبِنْيةً وبِنَايةً، والبِنَاءُ، المِبْنِيُّ وجمعه أَبْنِيَةٌ يقال :أَبْنَيْتُهُ أي أعطيته بِنَاءً أو ما يَبْنِي به داراً، ويستعمل أيضا لفظ العِمَارة للدلالة على البِنَايَة فنقول: العِمارة الطينية أو العِمارة الصحراوية واللفظان لهما نفس المعنى وهو تعمير المكان بالبِنَاء والتشييد، والعِمارة لغةً ما يعمَّر به المكان وأَعْمَرَهُ المكان واسْتعْمَرَهُ فِيه جعله يعْمُرُه، والمِعْمَرُ كَمَسْكَنٍ المنزل الكثير الماءِ والكلأ،وأعْمَر الأرضَ وجَدَهَا عامرةً،[4] والبَنَّاء مدبر البُنْيَان وصانعه[5]

ب- اصطلاحاً : عـرَّف ابـن خلـدون البِنـاء وقال":أنهـا أول صـنائع العمـران الحضـري وأقدمها،وهي معرفة العمل في اتخاذ البيوت والمنازل للسكن والمأوى للأبدان في المدن.[6] لأن

حياة الإنسان معرضة لكثير من الأخطار،وقد فصَّل ابن خلدون في صَنعة أو حِرفة البِناء حيث أشار إلى أنواع كثيرة منها: البِناء بالحجارة المنحوتة والبِناء باللَّبِن وهو التراب المبلول بالماء الذي يصنع بواسطة قالب من خشب مربع الشكل[7]وهو الطوب والطُّوب الآجر وواحدته طوبةً أي آجرة،والطَّوَّاب بتشديد الطاء والواو وفتحهما صانع الطوب.

أما كمصطلح أثري معماري فإن الطُّوب هو المضروب من الطين مربعا أو مستطيلا ليُبنى به،وهو إما محروق يعرف بالآجر،وإما غير محروق يعرف باللَّبِن[8]وقد عرفت توات بنوع آخر من الطوب من حيث الشكل وهو طوب اليد ذو شكل مثلث يشبه الهرم وقد أشار إليه العسكري الفرنسي ل.فوانو الذي دخل إلى المنطقة مطلع القرن العشرين 1900م/1317هـ ضمن الحملة الفرنسية على عين صالح[9]وهذا النوع استخدم قبل ظهور القالب المستطيل لصناعة الطوب والذي يظهر أن استخدامه أيضا كان قديما وقبل دخول فرنسا للمنطقة لوجود قصور مبنية به قبل الاحتلال الفرنسي، وما يستنتج من التعريفات السابقة أن البناية الطوبية هي تلك الأبنية التي يستعمل في تشييدها الطوب سواء كان محروقا (الآجر) أو غير محروق (اللَّبِنْ) وما يخص مناطق توات هو الطوب غير المحروق أي اللَّبِن وهو الأكثر انتشاراً لأن توات لم يظهر في بناياتها القديمة استخدام الآجر على الرغم من أن هذا النوع من البناء الطوبي أدخل لأول مرة إلى بلاد السودان القريبة من الإقليم على يد المعماري الأندلسي أبو إسحاق ابراهيم الساحلي الذي عاش في القرن الثامن الهجري في عهد سلطان مالي منسي موسى،[10]وظهر نوع آخر من البنايات وهي البنايات الملحية،حيث امتزجت الطين مع الملح فأنتجت معماراً ذو أبعاد مختلفة.

4. البعد الثقافي والاجتماعي للعمارة الطينية

يعتبر التراث الثقافي أو الموروث الثقافي المادي ذا أهمية كبيرة تاريخية وحضارية للحفاظ على الهوية الوطنية والذاكرة الجماعية للشعوب فهو كل ما يتركه الأجداد لينهل منه الأحفاد وهو مصدر الهوية، أو كل ما يتركه الأجداد من أثار كالمنشآت الدينية والجنائزية من مساجد

وجوامع، ومعابد ومقابر وغيرها،[11] كما أن العمارة الطينية أو الطوبية مكوناً أساسياً للموروث الثقافي المادي في توات، وهي تشمل مختلف المنشئات منها ماهو ديني مثل المساجد والجوامع ومنها جنائزي كالمقابر والأضرحة،ومنها المباني المدنية والعسكرية من قصور،وقصبات وأسوار وأبراج وغيرها،إلا أن هذا الموروث إن كان قد دُرس من الناحية التاريخية أو الأثرية،فإنه لم يدرس بشكل كافٍ كثقافة متوارثة من جيل إلى جيل،كما لم يتم الغوص في التفاصيل الدقيقة لهذه العمارة التي ترسم لنا صورة المجتمع القديم في توات وعاداته وسلوكياته،وقصصه وحكاياته التي قد تذهب مع آخر حجرة تسقط من بناية قديمة،إن تاريخ العمارة في توات قديم جداً قدم تواجد الإنسان واستقراره به .وهذا الموروث متواجد في مناطق مختلفة ويساهم بشكل كبير في تكوين شخصية الأفراد وهويتهم الثقافية،وبملاحظة ومعاينة بعض البنايات القديمة مثل القصور والقصبات تدرك العلاقة بين المجتمع وثقافته الموروثة،هذه الثقافة التي يجب أن تستلهم من هذه البنايات المفتوحة المنتشرة بواحات توات شمالا وجنوبا،شرقا وغربا والتي لها أكثر من دلالة.

إن الوقوف عند بعض المعالم الأثرية في تمنطيط ستلمح تلك الأسوار والبنايات الملحية أو أغارف[12]،التي لم تقهرها الطبيعة بقساوتها،ومازالت إلى اليوم بعض معالمها شامخة لكونها أكثر مقاومة من البناء الطيني منها قصبة أولاد داود قصبة الشيخ عمر وغيرها،تحمل رسالة من الماضي الذي كانت فيه الملح عملة نادرة تشترى للمأكل وبناء المسكن،ويرى بعض الباحثين أنه يجب تحليل هذا الفضاء المعرفي لقصور أغارف لأنه تجاوز الحدود العلمية والأدبية إلى أفق أخرى،وأن الأجداد قد استغلوا ما كان موجودا وأبدعوا فيه،[13] وتركوا للأجيال أفكارا ومعانٍ ذات أبعاد ثقافية واجتماعية ينبغي دراستها والاستفادة منها.إن البحث في هذه البنايات ودراستها يؤدي إلى معرفة دلالة وخلفيات كثيرة خاصة إذا ما غصت في تفاصيلها الدقيقة وفككت جزئياتها ومن ذلك .

– الزُقاق: و هو في نظر الجميع ممر تجُول من خلاله في القصر،وتنتقل في ثناياه لكنه يحمل أكثر من كونه ممر فهو في غالب الأحيان له سقف يظلله،فتجد فيه النِّسوة مكاناً لأُنسة القيلولة أمام المنازل،والتي يروق فيها العمل الحرفي من نسيج أو صناعة السعف،أو غيرها من

الصناعات اليدوية المحلية،وإن تعمقت أكثر في أسماء هذه الأزقة فستجد دلالات أخرى مرتبطة بالمجتمع والدين والثقافة،والتاريخ من خلال تلك القصص التي نسجت ورُويت عنها ولا تزال متداولة،فمن الزقاق الفوقاني،إلى الزقاق التحتاني،أو زقاق فم القصر،وفي ذلك إشارة إلى أن القصر مجزأ وكل جهة تحمل اسماً معيناً حتى لايتوه الزائر للمكان،أو زقاق العبيد أو زقاق الْعْلاَمْ،زقاق الشرفاء،زقاق المرابطين،زقاق العرب،زقاق الجامع...،ومن أسمائها تدرك التركيبة الاجتماعية للمكان،وبعضها يحمل أسراراً يصعب تفكيكها وأحيانا حتى فهمها،كما تحمل قصصا قد تكون حقيقية أو تكون من نسج الخيال،مثلا زقاق الْعْلاَمْ[14].

والْعْلاَمْ في ثقافة مجتمع توات يعني العَلَم أو الراية ولكن هذا العَلَم الذي لا يحضر إلا في مناسبات الزيارة(الوعدة) أو في ذكرى الاحتفال بالمولد النبوي الشريف بقصر أولاد براهيم بلدية تيمي حالياً،أو أسبوعه بتيميمون الذي تجتمع فيه عدة رايات لها قصة وتاريخ قد تدل على الأُخوة والسلام ونبذ الصراع،أو معتقد ديني أو غير ذلك،وهذا كله يدخل في إنتاج ثقافة المجتمع و ترابطه،وتماسكه وإن اختلفت الموافق حول مشروعية تلك الممارسات من عدمها، وأما زقاق الجامع،فهذا توجيه أو اتجاه سيوصلك إلى الجامع،فقد يكون في بداية الزقاق أوفي نهايته ولما تجد أيضا جهة من قصر تسمى زقاق ساقية سيدي عومر فالتسمية تحوي أكثر من معنى،فالساقية في توات عصب الحياة والنشاط الزراعي،كانت تجوب جل الأحياء والأزقة،وترتبط بتاريخ عريق مع الفقارة التي ذكرها ابن خلدون(ت/808هـ) حين قال :" في هذه البلاد الصحراوية إلى وراء العرق طريقة غريبة في استنباط المياه الجارية لا توجد في تلال المغرب،وذلك أن البئر تحفر عميقة...فينبعث صاعداً فيعم البئر ثم يجري على وجه الأرض واديا[15]."ويسميها الغريبة بقوله:"هذه الغريبة موجودة في قصور توات نتنكورارين،ووركلا وريغ والعالم أبو العجائب والله الخلاق العليم.[16] "

أما سيدي عومر فقد يكون والياً صالحاً أو فقيها عاش في فترة من الفترات التاريخية لتوات،وقد يكون أول من نزل وبنى وشيد في المكان فأخذ اسمه،وبالتالي مجرد تسمية لمكان ستجول بك عبر التاريخ .وكم هي كثيرة تلك المسميات في قصور توات،زقاق جنان

الجامع،وجنان الجامع في العرف التواتي هو الوقف المخصص للجامع،وهذا له ارتباط كبيرا بتعاليم الإسلام والثقافة الدينية.

المَصْرِية : وبداخل البيت التواتي توجد سقيفة تسمى المصرية،وهي بمثابة المخزن مخصصة لتخزين المؤونة فالموسم غير مضمون ووجب الاحتراز،فخصص التواتي من بيته جزء لضمان قوته ومعيشته عند الشدائد والأيام العجاف .

السطح: المتنفس لأفراد الأسرة خاصة للمرأة التي لا تخرج من بيتها حسب عادات بعض العوائل،وفي الليل يلجأ له هروبا من الحرارة في فصل الصيف،وفي النهار بحثا عن دفء الشمس هروباً من برد الشتاء القارص، وفي ذلك ثقافة لها بعدها الاجتماعي والديني .

الدكانة: وهي المكان المهيأ للجلوس وتجدها في بعض الأماكن بعينها في القصر خاصة عند مدخل القصر أو القصبة أوفي ساحة القصر،أو أمام مدخل البيت،وقد يرتبط ذلك بوظيفة حراسة القصر من تسلُّل الغرباء،وقد يقصدها الرجال دون غيرهم لتجاذب الآراء والحديث في كل ما يشغل ساكنة القصر.

الخندق(أحفير): أما عن ثقافة الأمن والاستقرار والحفاظ عليه فقد جسدها التواتيون من خلال تشييدهم لتلك القصبات المحصنة،والمحاطة بالخندق أو " أحفير"،أو المبنية على مرتفع أو صخرة،أو ذلك الباب الخشبي الكبير للقصر .وعند قراءة ذلك المشهد الذي يجتمع فيه السور العالي والخندق والباب يعطيك إشارة إلى الوضع الأمني غير المستقر الذي مرت به المنطقة وإلى مرحلة الصراعات والغارات التي كانت تحدث بين القبائل،ومن ذلك ندرك الظروف التاريخية والزمنية الذي شيدت فيها القصور.

القنطرة : ولا يمكن الدخول إلى بعض القصبات إلا بالمرور عليها،تكون أمام مدخل القصر أو القصبة،فإذا ما واجه السكان هجوما من العدو نزعوا هذه القنطرة وهنا يجب الوقوف على ثقافة المعماري التواتي وكيف وصلت به أفكاره لبناء القنطرة قديما أو لها علاقة مع التواصل الحضاري مع المناطق المجاورة للإقليم،وكذلك الشرفات الموجودة في أسوار القصبات والقلاع والأبراج،والثقوب المخصصة لرمي الأعداء الغزاة من الأعلى وغيرها. ناهيك عن الزخرفة

الموجودة والتي رغم بساطتها فمنها الإسلامية والبربرية الزناتية،والسودانية وفي ذلك كله ثقافة محلية وتواصل حضاري مع الجوار.

الرَّحْبة :وتسمى في بعض القصور الْقُصِيبة،وهي ذلك المكان الواسع الذي يتوسط القصر،والرحبة لها دلالاتها،ويتخذ منها الأطفال مكاناً للراحة واللعب والاستمتاع بمختلف الألعاب منها الرياضية،مثل لعبة كرة التَّشَكُّوم[17]،أو السباق أو الألعاب الفكرية مثل لعبة السِّيق،أو لعبة الضَّامَّة التي تشبه نوعا ما الشطرنج،كما تكون الرحبة للاحتفالات الدينية أو الأعراس،وفيها تقرع الطبول و أهازيج البارود وطلقاته وغيرها من الفنون الغنائية التي تؤدى في مختلف المناسبات .

وتعتبر قورارة أيضا حظيرةً كبيرةً للتراث المبني بالطين متنوع و يحمل لمسات خاصة في فن العمارة تجمع بين جماليات المكان وروعة الإبداع من ذلك القصور العديدة المنتشرة ببلدية أولاد سعيد الواقعة على بعد 18كم من تيميمون عاصمة قورارة،منها قصر كالي الذي به أثاراً لقصر قديم يحمل خصائص عمرانية متميزة يسمى بالزناتية أغام نتين أي قصر التمور،[18]وهو عبارة عن قلعة أو قصبة مبنية للتحصين من الحروب والغزوات بني من الطين والحجارة،كما يتميز باللون الأخضر لدرجة أنك تعتقد أنه الإسمنت الموجود حاليا،ويبدوا من التسمية أنه يعود إلى البربر أي قبائل زناتة التي سكنت المنطقة،وبني بهندسة معمارية راقية إذ إن القصر مرتفع عن الأرض،ويظهر ذلك من مدخله،كما أنه يتكون من أربعة طوابق،يدل على ذلك الآثار المتبقية في الجدران من الداخل وهي مكان السقف الخاص بكل طابق إضافة إلى قصر إيغزر الذي يعلو مغارة شبيهة بالكهف تشق الصخور الضخمة التي تحوطها فيما يقع القصر على ارتفاع يصعب على الغزاة الوصول إليه مما يسهل المراقبة الجيدة للأعداء.

5. البعد التاريخي للعمارة الطينية في توات

إن البنايات بمختلف أشكالها وأنواعها تعبر عن الموروث الثقافي المادي الذي يصور لنا مختلف جوانب الحياة في المجتمعات الإنسانية عبر فترات زمنية مختلفة،ولعل من أبرز الكتابات التي تحدثت عن إقليم توات خلال القرون السابقة المؤرخ اليوناني هيرودوث الذي أشار إلى

الجيتول السكان الأوائل للصحراء[19]. الذين سكنوا الكهوف والمغارات وشيدوا البيوت الطينية ونحتوا البيوت في الجبال[20].وذكر أ.ج.ب مارتن أن بطليموس عدَّدَ سبعة عشر اسما لبعض القصور بأسمائها القديمة ومنها تَلُوبَات وتعني تابَلْبَالة أو تَانِيبَت أوتِلْبْوِي،وهي بقايا أثرية لقرية تقع على بعد 6كم شرق زاوية كنتة،قصر المَلكات ويعني به قصر مَلُوكة وقصر تُوكَابَات،أي تسابيت،وبُونْتَا وهي بودة.[21]

كما أن الآثار والعينات المكتشفة تؤكد قدم تواجد الإنسان في المنطقة فالكهف الموجود شمال شرق مدينة تيميمون بمقيدن وإيغزر،والعظام التي استعملها الإنسان القديم في الصيد والقنص،كلها تظهر تعدد الأجناس المتعاقبة على المنطقة ونمط عيشها فبدأت بالكهوف،ثم الخشات،ثم البنايات الحيزية المشيدة بالحجارة،والبيت ذو الغرفة الواحدة،وصولاً إلى التجمعات السكنية حول الأحواض المائية،[22]إلى أن ظهرت قصور وقصبات ذات نمط معماري متنوع يظهر ذلك من آثار القصور المتبقية مثل قصر دراع وبعض القصور الموجودة في تمنطيط منها قصر أولاد داوود،وتايلوت وأولاد همالي،وأولاد ميمون التي يرجعها بعض الباحثين لفترة وجود اليهود في المنطقة، وذلك بالنظر إلى شكله ونمط بنائه الدائري الذي بني به،[23] أي إلى ما بين القرن 2و6 الميلاديين،ومنها أيضا قصر تازولت،وقصبة تاخفيف بزاوية كنتة التي تبعد عن ادرار ب75 كم، وقصبة حماد بتسابيت وقد أشار الفرنسي أ.ج.ب. مارتن،إلى أنه في إطار الأبحاث التي قامت بها فرنسا 1902م/1319هـ،عثر على ما يشبه صنم يعود لليهود [24]،كما وجد بتمنطيط حجر مكتوب باللغة العبرية،ووجود المعبد اليهودي في قصر أولاد همالي قرب رحبة توفاغي،وقد حوله العرب إلى مسجد .[25]

فيما يرجعها البعض الآخر لأبنية البربر القديمة،وإلى ذلك يذهب ابن خلدون حين اعتبرهم السكان الأصليين للصحراء وأول الوافدين إليها،وعلى رأسهم قبائل زناتة وكان ذلك قبل دخول الإسلام [26].ومنهم صنهاجة وكانوا يشكلون ثلث البربر وهم أكثر سكان المغرب ونزحت مجموعة منهم إلى الصحراء جنوب المغرب وعمروا المنطقة الممتدة من بين غدامس شرقا،ونول غربا، والسودان جنوبا وانقسمت إلى شعبين كبيرين أحدهما بقي في الجزائر والأخر

استوطن الصحراء وهم الملثمون[27]،كما أشار ابن بابا حيدة في القول البسيط في أخبار تمنطيط إلى أن الملثمون قد نزلوا بتوات بعد سقوط دولة المرابطين على يد الموحدين سنة541هـ-1147م،وأنهم قد عمروا المكان بعدما اكتشفوا أن الأرض ملائمة وبعيدة عن مطامع الآخرين ويصعب الوصول إليها فيشيدوا وعلوا بنائهم إلى السماء واستخرجوا الماء وأول قصر قاموا ببنائه في تمنطيط هو قصر تَيْلُوت،ثم توسعوا في العمران وبنوا قصوراً أخرى منها : قصر أتْعالى يوسف،ومسجد تَزنْكيت نسبة إلى زناتة،وفقارة يهنو لجلب الماء.[28] ويذهب آخرون إلى أن نزول البربر بالصحراء كان هروباً مع بداية الفتح الإسلامي لبلاد المغرب ومجيء عقبة بن نافع الفهري فنزلوا ببودة وتسابيت وقورارة وتمنطيط[29].

وذكر ابن خلدون(ت/808هـ) إقليم توات واصفا أياه حين قال "...وطن توات وهو بلد مستبحر في العمران وهو ركاب التجار إلى مالي ..." [30]ولابد من الوقوف هنا عند عبارة ابن خلدون "بلد مستبحر في العمران،فكلمة مستبحر كما جاء في القاموس المحيط،اسْتَبْحَر بمعنى انبسط،يقال اسْتَبْحَر الشاعر أي اتسع له القول،ويقال تَبَحَّر في المال :أيْ كثُر ماله وتَبَحَّر في العلم :تعمق وتوسع. [31] وما يمكن فهمه من قول ابن خلدون أنه وصف الإقليم بالمسْتَبْحِر في العمران أي من اتساعه وشساعته،وأيضا كثرة القصور المبنية فيه،وفي ذلك دلالة على انتشار العمارة وبناء القصور وتشييدها وذكر الحسن الوزان أيضا إحدى مناطق توات وهي تسابيت ويشير إلى أنه يضم أربعة قصور وقرى عديدة .[32]

6. أبرز أنماط البناية الطوبية في توات وخصائصها

يمكننا أن نميز بين نوعين من العمارة الطينية، النمط المحلي القديم والنمط العصري.

1.6. النمط المحلي القديم

يتمثل في المساجد، والمنازل والقصور والقصبات والأضرحة، فإقليم توات منذ القدم لا يزخر بالعديد من المساجد القديمة ومنها المسجد العتيق بتمنطيط الذي بني في سنة 106هـ/ 725م حسب ما كتب على محرابه .[33] وقد يكون مسجد قصر أولاد ميمون على اعتبار أنه أقدم قصر بها حيث بني في القرن الثامن ميلادي، وكذلك المسجد العتيق بقصر تايلوت الذي

بناه اللمتون وهو مسجد جمعة، هذا القصر الذي بني في القرن الثاني عشر ميلادي .[34] و مسجد سيدي على بن أحمد بزاوية كنتة ويقع هذا المسجد خارج القصبة من الجهة الجنوبية ويعتبر أقدم مسجدا بناه الكنتيون بإقليم توات خلال القرن الثامن عشر وبالتحديد في سنة 1122هـ/1710م،[35] والمسجد العتيق القديم في قصر تماسخت الأثري، والمسجد العتيق بقصر ملوكة الذي بني في القرن السابع عشر ميلادي من طرف البلباليين. ونشير إلى نماذج قديمة لم يبق إلا أطلالها كمسجد الشيخ سيدي أحمد بن يوسف التنلاني الواقع قرب قصر أولاد أونقال الذي يعود إلى القرن السادس عشر ميلادي ويحتوي على مئذنة، [36] إلا أن العديد من هذه المساجد لم يبق إلا أطلالها أو أعيد بناؤها .

ومن المباني القديمة أيضا المنازل حيث أن الظروف المناخية السائدة في إقليم توات وصعوبة التكيف معها فرضت على السكان قديما التمركز على ضفاف الوديان، وقد أشار العديد من الباحثين إلى السبخات التي تقع بالقرب منها معظم واحات توات وقورارة، كما أن المساكن في ذلك الوقت تبنى من الطوب،وهو مزيج من الرمل والطين يتم تجفيفه في الشمس.[37] يحتوي المسكن على السطح تتوسطه ساحة داخلية تسمى(الرحبة) تحيط بها غرف مظلمة، بهندسة معمارية بسيطة وأربعة جدران مستقيمة لها مدخلاً واحداً وباباً منخفضاً والسقف مصنوع من خشب النخيل وفوقها يوضع جريد النخلة وبعض الحشائش والأعشاب هذه الغرف المشار إليها تخصص منها واحدة لتكون مطبخاً، وغرفة لتخرين المؤونة.[38]

كما نجد القصبات والقصور والقصبة عبارة عن قلعة يحيط بها سور مشيد بطريقة دفاعية لتستعمل كمأوى للسكان عند نشوب الحرب أو في حالة الغزو من قبائل خارجية وهي مخصصة لإقامة القبائل أو العائلات المهمة، وعادة ما تبنى على مرتفع أو هضبة أو ربوة وتحاط بسور خارجي ذو أبراج للمراقبة الحراسة[39] وهناك نوع قديم يعود بنائه إلى فترة الجيتول،[40] وأخرى لليهود، والعمارة الزناتية وصولاً إلى الفترة الإسلامية .[41]

أما القصور فهي فضاء مشترك ومقسم إلى فراغات موزعة توزيعا نوعيا والذي تشترك فيه مجموعة بشرية ذات مصلحة واحدة أو الانتماء الواحد القبلي أو العشائري أو الأسري.وقد

عَرَف بناء القصور انتشاراً كبيراً بدخول عرب المعقل إلى الصحراء ويعتقد أنهم هم من أدخل هذا النوع من البناء والمعمار من مناطق استقرارهم التي كانت سكنى لقبائل زناته الأمر الذي أدى إلى ظهور التجمعات البشرية.وقد أشار غوتيي إلى وجود اختلافات بين الأبنية العربية والبربرية الزناتية، البيت البربري الزناتي مزود بشرفة، ذات طابع مدني للوحدات السكنية،ويضم التجمع السكني الواحد حوالي مئة شخص كما أنه مبني من الطين الصلب،ذو هندسة معمارية معقدة حيث أن البيوت مكونة من عدة طوابق بينها أدراج رصفت بإحكام،ووجود مزاريب أن هذه التجمعات السكنية نجدها في توات وفجويج، وهي صورة مصغرة لمدينة تلمسان مع فارق في المستوى والإمكانيات [42].

2.6 . النمط المحلي العصري

وهذا النمط المحلي العصري أو الجديد ممزوج بالنمط السوداني الغربي موروث عن الحقبة الاستعمارية وهي تلك المباني التي شيدتها فرنسا بعد احتلالها للإقليم بداية من سنة 1900م/1317هـ،وكانت ضمن مشروع بنائها لمدينة أدرار الجديدة، فشيدت منشآت وهياكل للسلطة الاستعمارية، وقد حرصت على أن تكون واجهات البنايات ذات طابع سوداني غربي، منها ساحة الشهداء الحالية التي كانت تسمى بساحة (لابيرين)،سوق الخضر بأدرار الحالي (المجاهد دينار الطيب)الذي بني سنة 1932م/1350هـ، وهو صورة من (سوق باماكو الوردي)، وفندق الواحة الحمراء الذي نزلت به دوقة لكسمبورج سنة 1926م/1344هـ وفندق (جميلة) الذي شيد سنة 1932م/1350هـ وبرزت فيه براعة البنَّاء التواتي الذي زين مدخله ببيت شعري ترحيباً بزواره،وهو فندق توات الحالي، ومنها أيضا أول مستشفى بني في أدرار سنة 1935م/1353هـ، والكنيسة التي بنيت سنة 1940م/1358هـ، وقد استعملت فرنسا مواد البناء المحلية من طوب وطين ومكونات النخيل، وجنان البايلك التابع للسلطة الاستعمارية لتوفير احتياجتهم من خضر وفواكه وبقول وبعد الاستقلال تحول إلى قرية سياحية، وفي1974م/1393هـ حُوّلت إلى مقر

للولاية[43].وبعض هذه المباني أهمل وهو بحاجة إلى ترميم وإعادة استغلال، وبعضه يقاوم ومازال مستغلا إلى اليوم.

4. خاتمة:

تحتضن الجزائر عبر مساحتها الشاسعة العديد من المواقع الأثرية التي تؤرخ لمراحل تاريخية مختلفة منذ العصور الأولى للتاريخ كما تزخر الصحراء الجزائرية بالعديد من المعالم التاريخية التي لها نفس الدور، والتي تكشف الأبحاث الحديثة عن عمقها التاريخي وقدم عمارة الإنسان لها،ورسومات الأهقار بتمنراست والرسوم الموجودة بتيديكلت ومناطق أخرى إلا دليلا على ذلك وليست الرسوم فقط، وإنما هناك إرثا ثقافيا ماديا كبيرا جدا يتواجد بإقليم توات في مختلف الجهات وما ذكرناه ماهو إلا نماذج فقط على سبيل الذكر لا الحصر، والبناية الطينية متنوعة من حيث شكلها الخارجي والداخلي وهندستها المعمارية وتختلف من منطقة إلى أخرى، إلا أن هناك قواسم مشتركة خاصة استعمال الطين الأحمر، مع بعض الفروق الموجودة داخل المنزل التواتي بصفة عامة.

ووصلنا من خلال هذه الدراسة إلى مجموعة من الاستنتاجات :منها ضرورة العمل على حماية هذا الموروث الثقافي المادي من قصبات وقصور ومساجد ومدارس قرءآنية والتي مازال بعضها صامداً رغم الظروف الطبيعية الصعبة، مثل القصبات التي أشرنا إليها ،والعمل على ترميم هذه المواقع وإدراجها وتصنيفها ضمن التراث المادي الوطني، ولما لا إدراج بعضها ضمن التراث العالمي لحمايته من طرف منظمة اليونسكو، وجعل هذه المواقع التاريخية بتوات معالم سياحية واستغلالها في الجانب الاقتصادي لتطوير التنمية في المنطقة، والاستفادة من الهندسة المعمارية المحلية في إنشاء المشاريع السكنية الحديثة للحفاظ على الطابع الحقيقي للمنطقة من حيث الهندسة ومواد البناء، العمل على معرفة التاريخ الحقيقي لهذا التراث التاريخي لتحافظ عليه الأجيال القادمة وعلى الباحثين في علم الآثار والتاريخ إعطاء أهمية كبيرة لهذا الموروث المهمل خاصة في الجنوب.

6. ملاحق:

ملحق رقم(01) قصر دراع

المصدر:متاح على النت

ملحق رقم (02) قصر أغامن تين

المصدر: محمد العابي، مرجع سابق

ملحق رقم (03) سور بأبراج ومحاط بخندق

Guillaume de champeaux Op.cit. p 32

ibid, p1 ملحق رقم(04) شارع بدكانة للجلوس

ملحق رقم: (05)

المصدر :صور من التقاط الباحثة، زخرفة، دكانة، مدخل قصبة، زقاق، من التقاط الباحثة

7. هوامش:

[1] – محمد الصالح حوتية، توات والأزواد خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر هجري (الثامن عشر والتاسع عشر ميلادي)دراسة تاريخية من خلال الوثائق المحلية، دار الكتاب العربي، الجزائر، دط، 2007، ج1، ص28.

[2] –محمد باي بلعالم، الرحلة العلية إلى منطقة توات لذكر بعض الأعلام والآثار والمخطوطات والعادات ومايربط توات من الجهات، دار المعرفة، الدولية، الجزائر، دط، 2015، ج1 ، ص66.

[3] – محمد الصالح حوتية، مرجع سابق، ص28

[4] مجد الدين الفيروزآبادي، القاموس المحيط، تحقيق أنس محمد الشامي، زكرياء جابر أحمد، دار الحديث، القاهرة، 2008، ص366.

[5] – علي بن محمد بن مسعود الخزاعي، تخريج الدلالات السمعية على ما كان في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الحرف والصنائع والعمالات الشرعية، تحقيق إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي بيروت، 1985، ج9، ص 719-721

[6] – عبد الرحمن بن محمد ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، تحقيق هيثم جمعة هلال، دار مكتبة المعارف بيروت، 2015، ص442

[7] – محمد سعيد القاسمي وآخرون، قاموس الصناعات بالشامية، تحقيق ظافر القاسمي، دار طلاس للدراسات، دمشق، 1 1988، ج1، ص52-55

[8] عاصم محمد رؤوف، معجم مصطلحات العمارة والفنون الإسلامية مكتبة مدبولي، القاهرة، 2000، ص184

[9] – Louis Voinot,Le TidikeLt.étud sur lagéographie , l´histoire ;les mœurs du pays ,Réimpression photographique de l´dition d´Oran,1909,p141- 142.

[10] – مسعود خالدي، أبو اسحاق ابراهيم الساحلي الأديب والمهندس والمعماري وأثره في نشر فن العمارة الإسلامية السودان الغربي، العدد 7، مجلة الساورة للدراسات الإنسانية، جامعة طاهري محمد بشار، الجزائر جوان 2018.

[11] – علي غازي، علي عفيفي، 2016، التراث المادي والتراث المعنوي، مجلة فكر الثقافية، الكترونية نشر بتاريخ2016/05/19الزيارة بتاريخ 2020/10/4.دص موقع -FIKrmag.com/article details.php ?article-id=316

[12] – أغارف:كلمة بربرية زناتية تعني القصور التي استخدم في بنائها الملح، وهي موجودة بتمنطيط، عبد القادر بن جعفري القصور الملحية في تمنطيط أغارف الفضاءات العمرانية نصوص مفتوحة، جريدة السياحي الكترونية–الجزائر–موقع https://www.facebook.com/%D8%AC%D8%B1%D9%8A%D8%AF%D8%A9-%D8%A7%D9%84%D8%B3%D9%8A%D8%A7%D8%AD%D9%8A-921918741338106

[13] – عبد القادر بن جعفري نفسه

[14] – نفسه

[15] – ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام والعرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر دار الكتاب اللبناني، 1983م، مج7، ج6، ص 119.

[16] – نفسه– ص 119.

[17] – من الألعاب التقليدية في توات حيث تصنع كرة صغيرة من ليف النخلة، وعصا من جريدة النخلة أيضا كمضرب وتكون بين فريقين وتشبه لعبة القولف .

[18] – محمد العايبي، (2016) وثائقي جولة في قصر كالي تيميمون، جمعية الوفاء الثقافي للإبداع الفني، موقع https://www.fecbook.com.elwafae. وزيارة ميدانية للموقع بتاريخ 2018/03/11

[19] – مبروك مقدم، مدخل مينوغرافي في المجتمع التواتي، دار هومة، 2008، ج1، الجزائر، ص 22

[20] – محمد عبد الكريم، الشبكة العمرانية لإقليم توات بولاية ادرار، آليات التنظيم والأداء المجالي، مذكرة لنيل شهادة الماجستير، في الجغرافيا والتهيئة العمرانية، عثمان طيب، كلية علوم الارض والكون، جامعة وهران 2، محمد بن احمد، 2016، ص24.

[21]– A.G.P Martin,alla- Frontière du Maroc les Oasis sahariennes p 31,1908, imprimerie,Algèrienne,(Gourara-Touat-Tidikelt)

[22]– مبروك مقدم، نشأة القصور وعمارة الارض بمناطق توات وأحوازها ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر 2016م،ج5،ص 84

[23] – محمد بن سويسي، يهود الجزائر، تلفزيون الشروق، الجزائر، 2018/03/29

[24] A.G.P martin, Opcit ,p 34-35

[25]– Ibid ,p 34-35 أنظر أيضا مبروك مقدم، المرجع نفسه، ص75

[26] – ابن خلدون، العبر، مصدر سابق، ص185

[27]– مبارك الميلي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، تح محمد الميلي، مكتبة النهظة الجزائرية، الجزائر، 2004م- ص 215

[28] – محمد الطيب ابن بابا حيدة، القول البسيط في آخبار تمنطيط، تحقيق، فرج محمود فرج، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2007، ص 187

[29]– A.G.P martin, Opcit ,p 53

[30] – ابن خلدون، العبر، مصدر سابق، ص118

[31] – الفيروز أبادي، القاموس المحيط، مرجع سابق، ص 97

[32] – الحسن بن محمد الوزان، وصف إفريقيا تر محمد حجي ومحمد الأخضر دار الغرب الإسلامي بيروت ط2، 1983م، ج2، ص 133

[33] – الطيب شاري، تقييد بخزانة كوسام، ادرار، الجزائر، ص 23

[34] – محمد الطيب ابن بابا حيدة ، مصدر سابق ، ص 187

[35] احمد الرقادي الكنتي ، دور الزاوية الكنتية في نشر العلم والمعرفة وإيواء الضيوف، الملتقى الوطني الاول للزوايا ، جمعية الابحاث التاريخية، ولاية ادرار، الجزائر، ايام 01-02-03 ماي، 2000م، ص4

[36] –محمد باي بلعالم، مرجع سابق، ص 81

[37]- Gulime de champeaux,Atravers Les Oasis Sahariennes les spahis Sahariens,imprimerie R,chaplot,paris,1902,p29-30

[38]- A.G.P,Opcit, P2

[39] – محمد بن سويسي، العمارة الدينية الاسلامية في منطقة توات " تمنطيط نموذجا "(ق6-13هـ/12هـ-19م) ، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في الاثار الإسلامية عبد العزيز محمود لعرج ، معهد الاثار ، جامعة الجزائر، 2008/2007م ، ص 37.

[40] – A.G.P martin), Opcit ,p31-32 أنظر ايضا محمد بن سويسي، نفسه ، ص 37.

[41] – مبروك مقدم، نشأة القصور، مرجع سابق ، ص 75-76

[42] – أميل فليكس ، غوتيي، ماضي شمال افريقيا، ترجمة هاشم الحسيني ط1، الفرجاني، طرابلس، 1970، ص 167

[43] – مقابلة شخصية مع السيد، الضب عبد الرحمان، مسؤول بجمعية الأبحاث التاريخية لولاية ادرار، مقر الجمعية، يوم 24أفريل 2021م.